أما قبلُ

«كتبها إليها بعد أول مجلس كان لهما يصف ذلك المجلس»:

لم يقولوا في لغتنا (أما قبل) كما أقول أنا يا حبيبتي، ولم تخطر لأحد قط، ولا يصححها وجه ولا تعليل، ولكني أضعها من أجلك، وما أشك أنها ستكون عبارة معشوقة من أثرك وأثر الحب عليها: وأقولها لك ولا أرتاب في أن ألسنة المحبين سترمي بها في كل زمن مراميها عند كل حبيبة ...

إنها كلمة حنانة، فيها الحب والذكرى، وفيها من نفسي ومن اللغة ومنك، وهي غريبة باللغة الغرابة؛ لأني صنعتها صنعة قلب لا صنعة لسان، ففيها الفن أي سر الحسن، أي حروف التصوير، أي المجلس الذي كان لنا أمس.

ويد المصور الملهم الحاذق لا تمر على الصورة بحركات الرسم وخطوطه، بل بحركات الفكر والقلب، ورعشات اللذة والألم، مستفيضة بالوحي الذي من لغته الخطوط والأبعاد والظلال والألوان. فما الرسم إلا الوجه الممكن لاتصال الإنساني من الفكر بالإلهي في الأشياء لخلقها مرة ثانية، وكذلك ليست (أما قبل) إلا الوجه الممكن عندي لاتصالي بأمس، وانتقال قطعة كانت من وجودنا في وقت إلى وجودنا في كل وقت، وخلق ما كان من قبل خلقًا تصويريًّا في كلمة.

قالوا (أما بعدُ) وسموها فصل الخطاب[1] وأنا أقول (أما قبل) وأسميها وصل الماضي؛ وبها نجعل لما فاتنا مما نحبه أو نؤثره لسانًا، ونعيد إليه الصوت، ونفتح له باب الساعة

---

[1] للعلماء كلام كثير في معنى (أما بعد)، وإعرابها وتوجيهها يبلغ من التحذلق أحيانًا أن يكون مضحكًا. و(أما) عند بعضهم اسم، وعند بعضهم حرف، وإذا قيل (وبعد) قالوا: و، عند بعضهم نائبة عن (أما) وهو المشهور، وعند بعضهم للاستئناف، وعند آخرين للعطف، و(أما) في (أما بعد) حرف

التي نكون فيها، ونخترع للمحبين لفظًا سحريًّا لم تستطع حواء بجنة خلد أن توحيه لآدم، وأوحيته أنت لي بمجلس حبك في لحظة!

«وأما قبل» ... فبماذا أصف مكانًا للحب كأنما مر به سر الخلود فإذا الوقت فيه لا يشبه نقصانًا من العمر بل زيادة عليه، وكانت يا حبيبتي كل دقيقة وثانيتها في مجلسك الساحر كأنما بعض الفكر والحس لا بعض الزمان والمكان؟

بماذا أصف الوقت الغض الذي كان ينبت لساعته رطبًا نديًّا كأنما انبثق من قبلتين؛ لأنه مرَّ بهواء حجرتك التي أنت فيها، ثم جعلني أعرف بعد أن فارقتك ولقيت الناس أن الزمن قد يكون من جدبه في أنفاس الناس حطبًا يابسًا وهشيمًا؟

وبماذا أصف ما لا يوصف ولا يوجد بيانه في اللسان مع أنه حي قائم في العين والضمير: إذ أشعر بك في ذلك المجلس وكأن أكثر معانيك الإنسانية تتهارب من حوله؛ لتسبغ عليك من اللطف معاني ملائكية سامية تتكلم بوجهك كلامًا هو شعر الحب؟

وإذا أشعر من شدة ما وجدت بك ووطأة حبك على قلبي أنه لو حل في كرسيك شخص من معانيك لما كان إلا ملكًا موترًا في إحدى يديه قوسًا محنية من صاعقة وفي يده الأخرى سنان يمور كالشعلة، وهو يرمي ويطعن وما يرمي ويطعن إلا لحظًا وابتسامًا؟

بل بماذا أصف ما لا يوصف إذا أردت بلاغتي أن تكون على مقدارك وأنت تلجين على قلبي من كل جوارحي، وأراك أمام عيني تحولًا مستمرًا في خواطري ومعاني، فلا

تفصيل، ولكنها في (أما قبل) حرف توصيل، ولا يجوز عندنا أن تستعمل (أما قبل) إلا في الحب أو البغض، فهي خاصة بالتفات النفس للذة أو ألم، كما لا يجوز عندنا أن يقال منها (وقبل) كما قالوا (وبعد) لأنها حينئذ لا تكون كلمة مخترعة، ولا تدل على أكثر من الظرفية، وإنما الاختراع وتمام الإشارة وتمام الظرف، في التركيب الذي وضعناه، فليذكر كذلك في اللغة، وليكن وضعًا جديدًا من أوضاعها لخصوص ما يحب ويكره دون غيرهما، ويجوز أن تقول (أما قبلًا) بالنصب والتنوين، و(أما قبل) بالرفع والتنوين، قياسيًّا على ما أجازه القراء في: أما بعد، ولكن ذلك في كلمتنا يكون ظريفًا إلى غاية الظرف بين الحبيبين.

وقال سيبويه في (أما بعد): إن معناها (مهما يكن من شيء) ونقول نحن في (أما قبل) إن معناها (لقد كان ما كان ...).

واختلفوا في أول من قال: أما بعد، فقيل إنه كعب بن لؤي، وقيل بل قس بن ساعدة الخطيب، وهو الأقرب. ولا اختلاف في أول من قال: أما قبل.

أملك أن أفكر في شيء ثابت، كأن دلالك قد سلبني حتى قوة التحديد، ويأتي لك أن يخضع لي منك شيء ولو بالمعنى للفظ في الذاكرة ...؟

«وأما قبل» ... فلقد كنت وما أحسن منك في جملة ما أرى إلا أن الجمال الرائع في معانيه الإنسانية إنما هو قدرة في بعض النساء على اختراع أمثلة أرضية من الجنة.

وكنت وما أشعر من سحرك إلا أني بإزاء سر وضعني في ساعة من غير الدنيا وحصرني فيك وحدك، حتى ليس لك من نظرة ولا كلمة ولا حركة إلا خيل لي أنها لم تكن في امرأة من قبل حتى ولا فيك أنت، وشتى بعد ذلك فرق بينهما فيك وفي كل امرأة؛ إذ لا تواسمك في الحسن امرأة!

وهاجمتني من يقظتي، واقتحمت عليَّ من حذري، وتركت بعض أفكاري من بعض كالمجروح يمشي على المقتول في معركة، ورمتني بما لا أجد له اسمًا إلا أنه زلزال روحي عنيف كان في قلبي أو كان يدًا امتدت إلى قلبي فنالته فضغطته!

وخليتني وعينيك، وخليتني وما كتب علي.

وضاعفتك رهبتك في نفسي فكثرت وكثرت، وضاعفتني أيضًا فزدت وزدت، حتى إن مع كل قوة فيَّ عادت فكرة حبك قوة أخرى.

واتسعت روحي لتشملك! فما كنت تتكلمين ولا تضحكين ولا تخطرين في غرفتك ولكن في داخل نفسي!

وكان نور الكهرباء وهو يشع في وجهك يغمغم أيضًا بكلمات من النور لتلك الشعل التي اضطرمت في قلبي.

وملأت حياتي بك وعرفتني من ذلك أني كنت من قبل حيًّا من الأحياء الفارغة ...

وأشعرتني أجمل السعادة، سعادة نسيان الوقت، كأني في هنيهة خلقت لي وحدي تجري بي وبك فوق المقادير.

ثم دفعت بي إلى ما وراء السعادة، إلى منطقة الأحلام التي لا يكاد يصدق الإنسان فيها أن الحقيقي حقيقي!

ثم رفعتني إلى حس خالق، فإذا أنا أرى كيف تخلقين في خلق معانيك؛ لتعود معانيك فتخلقك كما أحب وأهوى[٢] وتحقق بجمالك فن عواطفي، وتنشئ بعواطفي غرامي.

«وأما قبل» فقد كانت موجودة معي ولكنك ضائعة فيَّ؛ إذ كنا من وراء الشكل الإنساني كالعطر والنسمة الطائفة به.

وكنت أمامي ولكني أحتويك، وما أدري كيف كنت مملوءًا بك وأنت أمامي؟

وكنا نتكلم ولكن ألفاظنا تتعانق أمامنا، ويلثم بعضها بعضًا من حيث لا تراها إلا عيناي وعيناك.

وكنت أقطف الحياة بالتنسم من هواء شفتيك، وكأن هذه الأنفاس هي فرع ممدود من شعاع الشمس في روحي.

وتراءت النفسان فملأنا المكان بأفراح الفكر، واستفاض السرور على جمالك بمعنى كلون الزهرة النضرة، هو عطرها للنظر.

وقلت لي بجملتك: أنا ...، وقلت لك بجملتي وأنا ...!

«وأما قبل» ... فقد رأيت عندك الفجر، وأخذت منه نهارًا أحمله في روحي لا يظلم أبدًا.

وخالطت عندك الربيع، وانتزعت منه حديقة خالدة النضرة في نفسي لا تذبل أبدًا!

وجالست عندك الشباب، وترك في قلبي من لحظاته ما لا يهرم أبدًا!

واجتمعت عندك بالحب، وكشف لي عن مخلوقات الكون الشعري الذي تملؤه ذاتي فلا ينقص أبدًا!

ورأيتك يا فجري، وربيعي وشبابي، وحبي فلن أنساك أبدًا ...! و«أما قبل ...».

[٢] أي تطابق معانيها صور الفن الكامنة في مزاجه وروحه، فتنبه فيه هذه الصور، فكأنها خلقتها، ثم تعود الصور فتزين الحبيبة في خياله بأهوائه في الحقيقة لا بجمالها، ولذلك قال شاعرنا (صاحب الرسائل) لحبيبته يومًا في رسالة لم تنشرها: ما أذللتني بأنك كما أنت، بل بأنك كما أشتهي.